# المقاربة البيئية في العلوم المعرفية
## نموذج جيمس غيبسون ونظرية الإدراك المباشر

د. عبد الباسط لكراري
باحث في العلوم المعرفية، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بسطات
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء
lekrar@yahoo.com
المملكة المغربية

**الملخص**

تتناول هذه المقالة نظرية غيبسون في الإدراك المباشر ومفهومه للقابليات التفاعلية. وهي نظرية تقدم نموذجاً بيئيًّا موجهاً نحو الفعل في العلوم المعرفية. وفي هذا السياق، يدافع غيبسون عن فرضيته القائمة على أن الإدراك اللمسي يعمل بوصفه منظومة حسية –حركية استكشافية وديناميةقادرة على الاستعاضة عن حاسة البصر. أما القابليات التفاعلية فتشير إلى إمكانات الفعل التي تتيحها البيئة تبعاً لقدرات الكائن الحي؛ مما يسمح بالإدراك المباشر للمتغيرات البيئية في ترابطها العضوي والوظيفي. ويُلغي هذا المنظور أي حاجة ممكنة إلى التمثيل الذهني الداخلي، مؤكداً على مبدأ الالتقاط المباشر للمعلومات. لكن التحولات التجريبية العصبيّة التي مست براديغمات العلوم المعرفية، أعادت تعريف الفعل الإدراكي بوصفه عملية استخراج للمعلومات من المثيرات الطبيعية، لا يمكنها أن تستغني عن عمليات المعالجة وآليات التحليل والبرمجة والتخزين.

**الكلمات المفتاحية:** القابليات التفاعلية، المقاربة البيئية، جيمس غيبسون، الإدراك المباشر، اللمس الفاعل، الاستقبال الحسي، المعرفة المجسّدنة.


© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

## Abstract:

This paper explores Gibson's (1979) theory of direct perception and his concept of *affordances*, which offers an ecological, action-oriented paradigm in cognitive science. Gibson argues that haptic perception operates as an active, exploratory sensorimotor system capable of substituting for vision. Affordances refer to the action possibilities that the environment provides relative to the organism's capabilities, allowing for the direct perception of environmental variables in their holistic functional interrelation. This approach eliminates the need for internal mental representation, emphasizing direct information pickup. Subsequently, with the empirical advancement of cognitive science, the perceptual act has been redefined as the extraction of information from natural stimuli, followed by its processing, analysis, encoding, and storage.


© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

## 1. فرضية الإدراك المباشر:

ليس الوعي هو ما يؤسس المعرفةَ بالشكل (Forme)، بل المعرفةُ بالشكل هي التي أسست الوعي في التاريخ الإنساني[1]. وفي هذا السياق، تشكل نظرية "جيمس جيروم غيبسون" (J.J.Gibson) (1904-1979)[2] منعطفا أساسيا في نماذج الإدراك الحديثة. وقد اشتهر غيبسون بالدفاع عن موقفين نظريين: الإدراك المباشر الذي تبلور بخاصة في حقل البصَريات، ومفهوم القابلية التفاعلية (Affordance) الذي يعتبر توسيعًا تجريبيًّا لنظرية الإدراك المباشر. وما يهمنا هنا هو نفي غيبسون لأي أثر للخيال، ونقده لنظرية الإدراك المباشر، ونقده أيضا لنظرية "الخطاطة" (Schéma) عند إيمانويل كانط. فهذه الأخيرة «تعتبر المخيّلة واسطة بين الحساسية والفهم؛ وهي حسّيّة وإبداعية في الآن ذاته: حسية لكون الصور التي تزودنا بها كائنة في حيز الزمان والمكان؛ وإبداعية لأنها تكفل بواسطة ما تبدعه من خطاطات تنظيم الحدوس الحسية»[3]. وكل إدراك بدون مفهومٍ أعمى حسب العبارة الكانطية الشهيرة.

## 2. فاعلية الإدراك

منذ الكتاب الأول عن «الحواس بما هي منظوماتٌ إدراكية»[4]، دافع غيبسون بقوة عن فاعلية الإدراك، مؤكدًا على أن ما يسمى بالانطباعات الحسية (Sensations) ليست وسائط بين المدرِك والمدرَك، لأن الإدراك يتميز أصلا بالمباشرة.

لقد استرجع غيبسون أطروحات الباحث الجشطلتي "دايفيد كاتز" (David Katz) الذي أفاد كثيرا من أعمال "إدموند هوسرل"، وعارض فكرة التبعيّة الآلية للمنظومة الإدراكية الحسيّة. وحاول غيبسون الاشتغال على حاسة اللمس، من أجل إبراز التعقيد الذي يكتنف آلياتها مستندا في ذلك على خلاصة تجارب كاتز كما تبلورت في دراسته الشهيرة عن «بنية عالَم اللمس»[5]. وكان هذا الأخير قد بيّن أسبقية حاسة اللمس- تكوينيًّا وعَمَليًّا – على غيرها من الحواس.

وليس ضرباً من المصادفة أن تحيل أفعال الإدراك، في اللاتينية، على عملية *الإمساك باليد* (Percipere)، وعلى أفعال *الفهم* أيضا (Comprehendere)[6]. بل إن حزمة من الألفاظ الدالة على سيرورات معرفية محضة في اليونانية وغيرها من اللغات، تُقيمُ وشائج القربى الدلالية والاشتقاقية مع هذه الحاسة الراقية. ناهيك عن القدرات الإدراكية العليا لحاسة اللمس في جسّ مورفولوجيا الأشكال، والأطوال، ومسح المواد، والإحساس بالخصائص، وبَثِّ الانطباعات بمعانيها وصورها على نحو فاعل يسد أحيانًا كثيرةً مَسَدَّ حاسة الإبصار.

---

[1] René Thom. (1990), p165.

[2] للتعريف بالباحث وأعماله ينظر:

Hochberg, J. (1994), pp 151-171.

[3] عبد الباسط لكراري. (2004)، ص 246. وللتوسع في أصول المفاهيم وبنائها، يرجى الرجوع في هذا المرجع إلى فقرة "الفنطاسيا والخطاب الطبيعي" ص 50-46، و"الإبدال الكانطي"، ص 236-250.

[4] James Gibson. (1966). The senses considered as perceptual systems. Houghton Mifflin Ed.

[5] David Katz. (1925). Der Aufbau der Tastwelt. Verlag von Johann Ambrosius Barth. Leipzig, 131 pages.

[6] المرجع نفسه، ص 122. فالفعلان كلاهما يحيلان على المشكَّل باليد رغم طابعهما المجرد.


© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

واستناداً إلى تجارب كاتز، نَعَى غيبسون على علم النفس في عصره اختزال حاسة اللمس إلى جهاز استجابة، أي إلى فرع من الحساسية، ناحِتًا مفهومًا جديدًا هو "اللمس الفاعل" (Active Touch) البائنُ عن الاستجابة السلوكية المنفعلة بأطياف المثيرات. وأشار إلى أن الشخص حين «يلمس شيئا بأصابعه، فهو ينتج تنبيها معينا. وبتعبير أدق، فتغيرات التنبيه الجلدي لديه، تنجم عن تغيرات نشاطه الحركي. وما يحدث في أصابعه يرتبط بما يأتيه من حركات، وبما يلمسه.. وهذه الحركات ليست من ذلك النوع العادي الذي تعودْنا أن ندرجه في خانة الاستجابات؛ إنها حركاتٌ لا تغيّر المحيط، بل المنبهات الآتية منه؛ وليس مستبعداً أنها تطور بعض خصائص التنبيه الكائن بالقوة، وتحد أيضاً من بعضها الآخر»[1]. فالحركات اليدوية الاستكشافية، حركات عملية تحاكي الإبصار بالعين. اللمس الفاعل هو في حقيقته مسْح يدوي يضاهي المسح البصريّ؛ ذلك أنه قادر على إدراك عديد من خواصّ المحيط حتى في غيبة البصر، ويلُوذُ به الضّرير في اجتلاب معلوماته عن العالم المحيط به[2].

## 3. القابليات التفاعلية والإدراك المباشر:

في المقاربة البيئية (Ecological) يحتل مفهوم «القابليات التفاعلية»[3] (Affordances) موقع الصدارة. فهو من المفاهيم المركزيّة في العلوم المعرفيّة المعاصرة والحديثة، والنظريات الفلسفية الإدراكية. ورغم أن غيبسون من كبار المُعطّلين لمفاهيم التمثيل، والصورة الذهنية، والخيال، فقد قدّم مفهومُهُ عن الطبيعة وقابلياتها أرضيّةً صلبة لحقل البصريات، قبل انبثاق نموذج "دايفيد مار" (David Marr)، والنظريات المعرفية اللاتمثيليّة (Anti-représentationnelles)، والنظريات التصورية عند لايكوف، وجونسون، وتورنر، وفوكونيي، والنظرية المنظوميّة عند فودور، وعشرات النظريات التي تتبارى اليوم في فضاءات العلوم المعرفية. فهو إذن من المفاهيم التي يصعب تفاديها (Incontournables) في صناعة النماذج والنظريات المعرفيّة والإدراكيّة على السواء.

عرف مفهوم «القابليات التفاعلية» مساراً تراكميًّا أسهم في استوائه على النحو المركّب والمنفتح تأويلياً الذي انتهى إليه في كتاب "المقاربة البيئية للإدراك البصريّ" الصادر سنة 1979. وانسجامًا مع ما تقدم، فقد نصّ غيبسون في دراساته اللاحقة في البصريّات على مبادئَ في الإدراك مؤدّاها أن أيّ معلومة تنْثالُ على إدراكنا مصدرُها الطبيعة بمفهومها الأوسع؛ غير أن هذه

---

[1] James Gibson. (1962), p 477.

[2] (م. ن)، (ص. ن).

[3] فعل Afford في الإنجليزية يعني: منح، زوّد، أتاح، كما يحمل معنى القدرة على فعل الشيء. ومصطلح Affordances هو عند غيبسون من أصعب المصطلحات ترجمةً. وقد اختار أوليفيي بوتوا (Olivier Putois) ناقلُ كتاب غيبسون إلى الفرنسية، ترجمة (Affordances) بالدعوة (invite)، مادام الاسم يجمع بين الخاصيّة والقدرة:

- Gibson, J. J. (2014). Approche écologique de la perception visuelle (O. Putois, Trans.). Paris, France: Éditions Dehors, p 500.

ونظرا لصعوبة الوفاء بالمعنى، فقد أبْقتِ الترجمة الإيطالية في نسختها الثانية الصادرة سنة 2007 على أصل المصطلح (Affordances)، وأشار المترجمان "باولو بودزي"، و"ريكاردو لوكيو" إلى أنه مصطلح غير قابل للترجمة:

- Gibson, J. J. (2007). Un approccio ecologico alla percezione visiva (P. Bozzi & R. Luccio, Trans.). Milano, Italia: Fabbri Editore, pp 13-14.

ورغم أن الترجمة الفرنسية تحصر الدلالة في الدعوة، مادامت الفاكهةُ التي تلُوح بين الأغصان تستدرجُ الحيوانَ إلى قطفها، لأن ما في الطبيعة يتضمن تلقائيا دعوةً لمن يعيش فيها؛ فالوفاءُ بالظلال الدلالية، والأشكال التي يتّشح بها المفهومُ في سياقاته المتعددة، يجعل تلك الترجمة اختزاليةً وبعيدة أحيانًا عن التضْمينات الجديدة. ووعيًا منا بالتعدد الدلالي للمفهوم، وتقريبًا لمعناه، اقترحنا صيغة: القابليات التفاعلية، لرحابة مدلولاتها، ووفائها بالمعنى المراد.


© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المعلومة ليست استجابة آلية لمثير مادي، ولا رسماً ذهنيًا تنتجه الذاكرة تلقاءَ ما يكتنف المدركات الحسية والعقلية من موضوعاتِ العالم الطبيعي، بل هي ثمرة إدراك مباشر وبلا توسُّط. فالإدراك البصري عند غيبسون مباشر (Direct Visual Perception) يحيط بموضوعه دون واسطةٍ لغرضٍ يرومه المبُصر في علاقته بالمحيط[1]. فالتيار البصريّ (Flux optique) الذي يعكس بنية الموضوع الفيزيقي يحوي ثوابت إدراكية تحصّلت عليها المنظومةُ البصرية بالدربة والممارسة حتى صارت لها ملكةً راسخةً، تقبض على موضوعها دونما حاجة إلى وسيط أصلاً.

إن المعلومة التي يغدقها علينا الضوءُ هي أفسح وأعمق بكثير– في تقدير غيبسون– من مجرد إسقاط ذهني أو خوارزميٍّ في الدماغ. إنها منحةٌ تجود بها الطبيعة تلبية للحاجات البيولوجية والمعرفية والأنثروبولوجية.. ومن ثم خاصيتها القصدية والتداولية. وهي كائنة على نحو مستقلّ عنّا؛ وحين نتفاعل معها ننْشئ الفكر، ونبني النماذج والسيناريوهات. فالعلاقة بين الملاحظ والمحيط (Environment) هي علاقة تكاملية[2]. فثمة فرق إجرائي بين البصريات البيئية المرتكزة على المعلومة بما هي إدراك مباشر للمحيط، والأنواع الأخرى من البصَريات[3]، بل وأدبيّات التواصل الثقافي[4] التي تقدم المعلومة في خطاطة ذهنية وسائطية قاصرة عن الإحاطة بالمدلول البصريّ البيئيّ المباشر.

إن ملاحِظ المحيط لا يدرك الخواص الفيزيائية للموضوع الماثل أمامه فرادى أو منفصلة عن خواصه الحسية الحركية أو المعرفية، بل يدركها في وحدة عضوية، وتعالُق بنيوي وظيفيّ (فالكتاب للقراءة مثلا، والقلم للكتابة، والجبل للتسلّق، والكرسي للجلوس، وهلم جرا). فثمة رابط بنيويّ سببي ونفعيّ متعدد الأشكال والتجليات، يفسح المجال واسعًا للعلة الغائية في بنية العلاقة بين المدرك والمدرك. وذلك معناه أن المحيط يمنح المدرك كل الإمكانيات والفرص، والطاقات، والقدرات والدوافع للتفاعل والتأقلم والبناء والفعل.

فكل ممكنات التأثير والفعل التي يُفترض في المحيط أن يمارسها على المنظومة الحسية الحركية لمدركه لحثه على التفاعل، هي ما يسميه غيبسون «بالقابليات التفاعلية» (Affordances). فالكأس لا يرتبط فقط بحاجة مستعمله، وإنما يملي وظيفته أو وظائفه على مدركات ذلك المستعمل. فهو، من ثم، جزء لا يتجزأ من بنية الإدراك. إنه متغيرٌ يتفاعل مع الملاحِظ في الفعل، والوظيفة، والسياق، والدلالة. وهو تفاعلٌ يقدم نفسه أولاً بالقوة (Interaction potentielle) ليصير تفاعلا بالفعل. فكل الإمكانات التي يمنحها المحيط للذوات كي تتفاعل معه، تندرج تحت مسمّى القابليات التفاعلية[5].

---

[1] James Gibson. (1986), p 147.

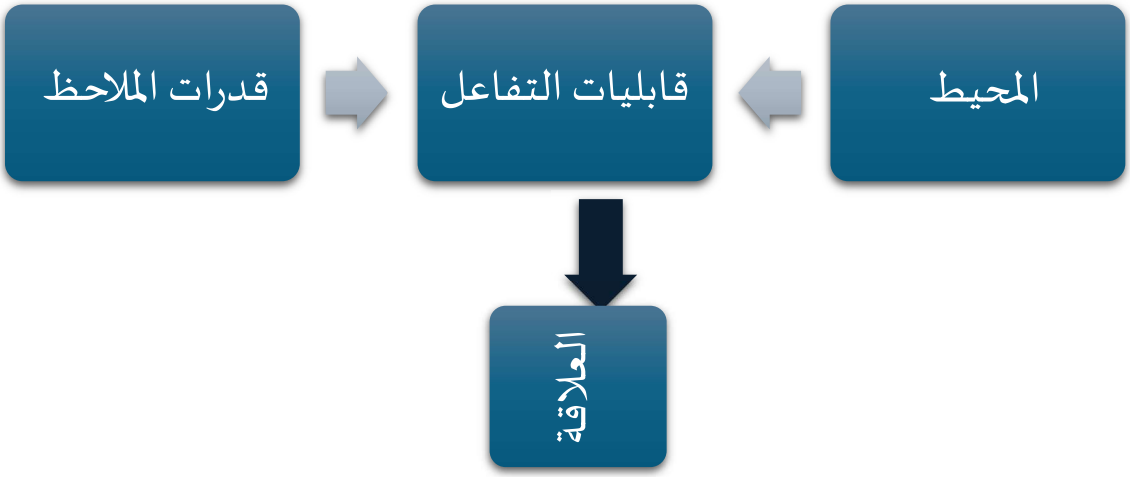
[2]– المرجع نفسه، ص 15.

[3] – البصريّات الفيزيائية، والهندسية، والفيزيولوجية، (م. ن)، ص 47. فالبصرياتُ البيئيَّةُ إشراقيةٌ وليست إشعاعيةً.

[4] (م. ن)، ص 63. فالمعلومة المشتقة من الضوء المحيط بنا، تختلف اختلافا جذريا عن المعلومات التي يتم نقلها عبر سلسلة الوسائط التواصلية، بافتراض وجود الصورة الذهنية إرسالا واستقبالا.

[5] Simone Morgagni2011).), p 8.


© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/




. خطاطة العلاقة في قابليات التفاعل

لم يُخْفِ جيمس غيبسون التأصيل الجشطلتي لمفهوم «قابليات التفاعل» بالألمانية عند "كورت لوفن" (Kurt Lewin) (Aufforderungscharakter)[1] قبل أن يخضع في حقل البصريّات البيئية لإعادة البناء. والظاهر أن نظرية غيبسون في هذا النطاق امتحّتْ كثيرا من أبحاث "هاينز فيرنر" (Heinz Werner)، و"فولفغانغ كوهلر" (Wolfgang Köhler)، و"كورت كوفكا" (Kurt Koffka)[2]. وعلى هذا الأساس، فغيبسون يمثل النزعة التجريبية المتأثرة بمفهوم *خطاطة الجسد* (Schéma corporel) باعتبارها موجّهة للعلاقة بالطبيعة؛ وهي التي ستعرف لاحقا تحولات جذرية مع "لايكوف وجونسون" في الأنساق التّصوريّة، والجسْدنة (Embodiment). بل إن غيبسون استشهد مراراً في هذا الصدد بميرلو بونتي (Merleau-Ponty)، وأبرز تأثره الشديد في مفهوم "القابليات التفاعلية" بالنسق الجشطلتي، والتداوليّات الأمريكية[3].

مما تقدم نستنتج أن "القابليات التفاعلية":

1. مفهومٌ أيكولوجي (بيئيّ)؛
2. ذو خاصية علائقية، يعْقد الصلة بين الذات المدرِكة والمحيط؛
3. يؤشّر على وقائع بيئية، وسلوكيات ظاهراتية؛
4. ثم إن مجموع القابليات يشكّل ما يسميه غيبسون "الموطن" (Niche) الذي يعيش داخله كل كائن، ويمارس حياته ونشاطاته. وهو — من حيث كينونته ووظيفته – دالّ على كيفية العيش أكثر من الدلالة على مجرد المكان أو الفضاء[4].
5. القابلياتُ دلالاتٌ مُدْرَكَة؛
6. هي توليفة ثابتة ومركّبة من المتغيرات، تطورت في الزمن قبل أن تُنْقل إلى الذات المتفاعلة؛

---

[1] أو ما كان يترجم أصلا عند "كورت لوفن" (Kurt Lewin) ب"القيمة" (Valence)، و"الدعوة" (Invitation).

[2] غيبسون (1986)، ص 140- 138، وانظر أيضا:

- Marion Luyat & Tony Regia-Corte. (2009), pp 305-309.

[3] Manuel Heras-Escribano. (2019), p 5.

[4] غيبسون (1986)، ص 26.


© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

7. إنها تُدرك مباشرة، وتقع على صفحة الحس من غير واسطة[1]؛

8. وهي بطبيعتها غيرُ قابلة للقياس[2].

رأينا كيف ظل غيبسون ينفي نفياً قاطعاً – في جميع أعماله – وجود "المصوّرة الذهنية" (Imagerie mentale)، أو "التمثل" (Représentation)، معارضًا تبعيةَ الإدراكات للمفاهيم بالمفهوم الكانطي، مدافعًا بقوة عن فرضية الإدراك المباشر، معتبرًا أن المنظومة الحسية هي جوهرُ كُلِّ معرفةٍ[3]. كما شدّد على أنه لا أساس لتمييز المحيط الثقافي عن المحيط البيئي بمفهومه الواسع؛ فهذا الأخير، في نظره، أصلٌ لا محيص عنه للأول. ومهْما صنّفْنا ثقافة المحيط البيئيّ إلى مادّية (شيئية)، ولا مادّية (رمزية) فمردُّهما معاً إلى فاعلية المحيط؛ ذلك «أن الرمز لا يتحقق خارج الصوتِ، والضوءِ المعكوس، والاتصالِ الآليّ، أو ما شابه، وأنّ المعرفة لا تنفكّ قلامة ظفرٍ عن الحساسية[4](Sensibility). وقد جرّت عليه هذه الواقعية المغالية خصومات فلسفية وعلمية، وخاصة من لدن الاتجاه المعرفي الآخذ آنئذ في اكتساح قطاعات عريضة من العلوم الإنسانية. وحاول معاصره روجي شيبارد (Roger Shepard) أن ينصفه في غير تحامُلٍ، مؤكدا على أن الكثير من ثوابت الطبيعة يقع استدماجها معرفيّا، وأنه مهما حاولنا الإعلاء من شأن الإدراك الحسي على حساب سائر الملكات، فإن ثمة آليات ذهنية ومعرفية Cognitifs تشتغل إلى جوار الإدراك المنْصبِّ على موضوعات العالم الخارجي، فنشاط المخيّلة قائم حتى في غيبْة هذه الموضوعات أو انتفائها جُملة[5]. واعتبر شيبارد أننا بالحديث عن السيرورات التشريحيّة العصبيّة في آليات الإدراك والتخيل والتفكير والحلم والتخطيط والهلوسة، إلخ؛ نفتح الباب على مصراعيه أمام قطاعاتِ العلوم البيولوجية، والمعرفيّة، والعصبيّة الحديثة[6]، وهو إجراءٌ باتَ مؤكَّدًا وثابتًا علْميًّا على نحو يصعب دفْعه.

## 4. تحولات المفهوم:

عرف الإطار المفهومي لمدلول "*القابليات التفاعلية*" تطوراً ملحوظًا على مستوى البنية، فانتقل من "القابليات التفاعلية الواقعية" المنبثقة من المحيط والبيئة عند غيبسون إلى "القابليات التفاعلية المدركة" (Perceived affordances)؛ أي الخاضعة للتأويل الذاتي. فالصنف الأول معطى سلَفًا، خلافا للصنف الثاني الذي اعتبره واضِعُهُ "دونالد نورمان" ( Donald Norman) مطروحا للتأويل وإعادة البناء انطلاقا من دوالّه: فالأبواب بشكل عامّ تحمل بمعنى من المعاني دعوة تلقائيةً للفتح قبل الولوج، غير أنّ الأبواب ليست جميعًا تحمل القابلية التلقائية ذاتها، إذْ ما تزال أبواب المتاجر الزجاجية مثلاً تشكّل عائقًا بل أحيانًا محذورا خَطيرًا على الذين لا يميزون إشارة الدّفع من السحْب؛ وقسْ على ذلك في دوالّ مقيّدة مماثلة، فبعض الخواصّ لا يكون لها وجود في عالم الأعيان، وتكون ثمرةَ ممارسة ونسق سيميائي ثقافي معيّن. وكما أنّ "تشارلز شرينغتون" ( Charles Sherrington) ميّز – في الوظيفة والطبيعة – بين الإدراك العامّ (Perception)، والإدراك الخاص (Proprioception)؛ إذ الأول عام مشترك، والثاني خاص يؤطره الإدراك الواعي أو اللاواعي بحركةِ وَوِضْعَةِ (Posture)

---

[1] Charles-Edouard Niveleau. (2006), p 180-181.

[2] غيبسون (1966)، (ص. ن).

[3] (م. ن)، ص 26.

[4] (م. ن)، (ص. ن).

[5] Roger N. Shepard. (1984), p 420.

[6] – (م. ن)، ص 421.


© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وجوارحِ الجسد، والمجالِ التصوريّ لفعل الإدراك والحساسية[1]، فكذلك ميز "نورمان" بين القابليات الحدْسيّة الإدراكية العامة، والقابليات التفاعلية المتولدة عن تأويل ذهني للأشياء؛ وهو تأويل يحدده محصولُ معارفنا وتجاربنا الماضية التي نسْقطها على إدراكاتنا[2].

وأنشأ "جياجي زهانغ" (Jiajie Zhang) و"فيملا باتيل" (Vimla Patel) تفريعات وسّعت الفضاء الدلالي للقابليات التفاعلية، تلبيةً لحاجات نظرية وتجريبية؛ فتوزعت إلى أصناف بيولوجية، وفيزيقية، وإدراكية، ومعرفية، وهجينة مشتركة أيضاً[3]. فحصل التقارُب بين الدينامية الجشطلتيّة والسيميائيات البورسيّة (نسبة إلى شارل. س. بورس)[4]. كما اشتق "بول سيزيك" (Paul Cisek) مفهوم «التمثيلات التداوليّة» (Pragmatic representations) من التمحيص العصبيّ لنظرية القابليات التفاعلية[5]. فحقّق مختبرياً ما كان سيعتبره غيبسون مغامرةً نظريةً صعبة المنال.

والحق أن فضل "*القابليات التفاعلية*" على النماذج المعرفية المعاصرة يكمن بخاصة في تمييز السيرورات المعرفية عن السيرورات النفسية بالاستناد إلى معطيات المحيط. فإذا صحّ «أنّ السيرورات المعرفية تشكل في مجموعها سيرورات نفسية، فليست جميع السيرورات النفسية معرفيّةً إلا إذا هي أسعفتْنا على تعميق معرفتنا بمحيطنا. فمعطيات المحيط تظل، من ثمّ، فيْصَلاً أساسًا في التمييز بين السيرورات النفسية المعرفية، والسيرورات النفسية غير المعرفية»[6].

## 5. نقد المفهوم:

إن الإدراك شكلٌ خالصٌ، والمفهوم (Concept) محتواه. والمفاهيم تنبع من الإدراكات، لكن المدركات ليست موصوفةً سلفاً، بل تَصِفُها المفاهيم: فحين ترى شجرة، فأنت لا تراها "شجرة" إلا إذا كان مفهومها متحقّقًا. ومن هذا المنطلق، فالشكل والمحتوى يتوفران بالقوة على معنى، لكنه لا معنى له إلاّ إذا عُرِف. فشرطُ الدلالةِ المعرفةُ[7]. فالرؤية والكلام، كما يقول السيميائي "فلويد ميريل" (Floyd Merrell)، متمايزان، لكنهما نشاطان متكاملان[8]. فالإدراك وظيفته الحصول على المعلومة من المحيط، وهذه المعلومة لا تتحقق خارج المعالجة، لكن غيبسون يرى في مجرد الإدراك الحسي حقيقة مستقلة تُغني بذاتها عن التجريد والتخيّل. فرغم أن التمثيل (Représentation) هو تقديمٌ ثانٍ للمدْرَك (Re/ présentation) أي شكلُهُ الجديد المجرّد من مادته، والمعروضُ في صورة ذهنيّة، فهو ليس بحالٍ تكرارًا أميناً للصورة الحسيّة المدركة، ولكنه تعديل يطرأ على ماهيتها الهيوليّة

---

[1] يمكن الإفادة من البحث الرصين لدينيس فوريست:

- Denis Forest. (2004), pp 5-31.

[2] Donald A. Norman. (1988), p 219.

[3] مورغانيي (2011)، ص 15. فالقابليات البيولوجية تُحَدَّد إحيائيًّا (فالفطر السام قاتلٌ، والفطر غير السام مُغذٍّ)، والقابليات الفيزيقية تُحدد فيزيائيا (فهناك مثلا فضاءات مفتوحة، وفضاءات مغلقة)، والقابليات الإدراكية تُبنى مؤشراتها إدراكيًّا (مثل الأيقونة الدالة على النوْع (رجل/امرأة) الملصقة على أبواب المراحيض)، وأما القابليات المعرفية فتؤسِّسها المواضعات التواصلية (أضواء المرور مثلا)، والقابليات المشتركة مثالها صندوقُ الرسائل الذي يجمع جُملةً القابليات الفيزيقية، والإدراكية، والمعرفية.

[4] - (م. ن)، ص 19.

[5] Paul Cisek. (2012), p 211.

[6] مانويل هيراس (2019)، ص 59. والجدير بالذكر أن جميع الآليات المعتمدة في الذكاء الاصطناعي، والنماذج الذهنية، والآليات المعرفية كالأطر والمدونات والخُطاطات والمعرفة بالعالم، إلخ، تشكّل سيرورات نفسية معرفية تتيح إمكانية فهم وإنتاج تمثُّلاتٍ عن المحيط.

[7] Floyd Merrell. (1983), p 2.

[8] (م. ن)، ص 55.


© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

(المادية) الأصلية، بتحويلها – عبر آليات بصريّة وعصبيّة ومعرفيّة – إلى عنصر مجرّد، أي إلى كيان جديد[1]. لكن غيبسون ينفي وجود أيّ تقديم ثانٍ، مصرًّا على الإدراك المباشر، ولذلك اعتبر "جيري فودور" (J.A.Fodor) أن نظرية الرؤية والإدراك المباشريْن تعْصِفُ بأي إمكانية أو مشروعية للآليات التحْسيبية، مادامت ترى أن الإدراك لا تتدخل فيه وسائط الذاكرة والاستدلال، ولا أي سيرورة تصوريّة أخرى[2]. فالتيار البصريّ الذي يعكس بنية العالم الطبيعي، يحوي ثوابت إدراكية تمرَّستْ منظومةُ الرؤية على التقاطها مباشرة، ومن غير وسيط. وهكذا فقد أخفقت نظرية غيبسون إبستمولوجيًّا باعتقادها أن الإدراك البصريّ لخواصّ مدْركات المحيط، يمكن أن يتحقق بمندوحةٍ عن الاستدلالات (Inférences)[3]. كما أن افتراضه أن صحّة إدراك القابليات التفاعلية قد يُعفي من أي وسيط، تصوُّرٌ لا يقدّم أيّ حل ممكن لمسألة أخطاء الإدراك، لأنه لا يسمح بتحليل وفهم حالات الخطأ التي قد تصيب المحاولة الافتراضية الأولى[4]، كما لا يتبنّى أصلا الخاصيّةَ الاستدلالية البنائية للمعرفة[5]، ولا المحتوى القصْديَّ للتجربة البصَرية، لأنه يرى أن المعلومة موجودة مسبقا في الضوء! مع أن بناء نظرية صلبة عن الإدراك، يستلزم وجوباً بناءَ نظرية أنطولوجية عن فعل المعرفة (Cognition).

---

[1] Michel Sanner. (1999), pp 9-11.

[2] J.A. Fodor and Z.W. Pylyshyn. (1981), p 141.

[3] (م. ن)، ص 142.

[4] (م. ن)، ص 154.

[5] José Maria Gondra. (2001), p 360.

وغيبسون من هذا المنطلق خصْم لدودٌ لبنائية جان بياجي.


© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

## المراجع والمصادر

- عبد الباسط لكراري. (2004). دينامية الخيال: مفاهيم وآليات الاشتغال. الرباط. منشورات اتحاد كتاب المغرب. ط 1.

1) Cisek, P. (2012). Cortical mechanisms of action selection: The affordance competition hypothesis. In K. Seth, T. J. Prescott, & J. Bryson (Eds.), Modelling natural action selection (pp. 43-70). Cambridge, UK: Cambridge University Press.
2) Fodor, J. A., & Pylyshyn, Z. W. (1981). How direct is visual perception? Some reflections on Gibson's "Ecological Approach". Cognition, 9(1), 139-196.
3) Forest, D. (2004). Le concept de proprioception dans l'histoire de la sensibilité interne. Revue d'histoire des sciences, 57(1), 5-31.
4) Gibson, J. J. (1962). Observations on active touch. Psychological Review, 69(6), 477-491.
5) Gibson, J. J. (1966). The senses considered as perceptual systems. Boston, MA: Houghton Mifflin.
6) Gibson, J. J. (1986). The ecological approach to visual perception. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.
7) Gibson, J. J. (2007). Un approccio ecologico alla percezione visiva (P. Bozzi & R. Luccio, Trans.). Milano, Italia: Fabbri Editore.
8) Gibson, J. J. (2014). Approche écologique de la perception visuelle (O. Putois, Trans.). Paris, France: Éditions Dehors.
9) Gondra, J. M. (2001). Historia de la psicologia (Vol. 2). Madrid, España: Síntesis.
10) Heras-Escribano, M. (2019). The philosophy of affordances. Cham, Switzerland: Palgrave Macmillan.
11) Hochberg, J. (1994). James Jerome Gibson. A biographical memoir. Washington, DC: National Academy of Sciences.
12) Katz, D. (1925). Der Aufbau der Tastwelt. Leipzig, Germany: Verlag von Johann Ambrosius Barth.


© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

13) Luyat, M., & Regia-Corte, T. (2009). Les affordances, de James Jerome Gibson aux formalisations récentes du concept. L'Année Psychologique, 109(2), 297-332.

14) Merrell, F. (1983). Pararealities: The nature of our fictions and how we knew them. Philadelphia, PA: John Benjamins Publishing Company.

15) Morgagni, S. (2011). Repenser la notion d'affordance dans ses dynamiques sémiotiques. Intellectica, 55(1), 241-267.

16) Niveleau, C.-E. (2006). Le concept gibsonien d'affordance: Entre filiation, rupture et reconstruction conceptuelle. Intellectica, 43(1), 159-199.

17) Norman, D. A. (1988). The design of everyday things. New York, NY: Doubleday.

18) Sanner, M. (1999). Modèles en conflit et stratégies cognitives. Bruxelles, Belgique: De Boeck Université.

19) Shepard, R. N. (1984). Ecological constraints on internal representation: Resonant kinematics of perceiving, imagining, thinking and dreaming. Psychological Review, 91(4), 417-447.

20) Thom, R. (1990). Apologie du logos. Paris, France: Hachette


© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/